أثر ابن جني
في عبد القاهر وابن الاثير

الدكتور احمد مطلوب

كلية الآداب ــ جامعة بغداد

عضو المجمع

عرف ابن جني (ــ ٣٩٢ هـ) عالماً في اللغة والنحو على الرغم من أنه ألف اكثر من ستين كتابا في موضوعات مختلفة ٠ ويعد كتابه « الخصائص » من كنوز العربية لما فيه من مادة علمية احتفظت بجدتها ، ولاتزال ترفد الدارسين بعلم غزير ٠ والباحث في كتبه ــ ولاسيما « الخصائص » ــ يجد مادة وفيرة في البلاغة وان جاءت تفسيراً لقضايا لغوية ٠ وكان لهذه المادة العلمية أثر في البلاغيين كعبد القاهر الجرجاني (ــ ٤٧١ أو ٤٧٤هـ) وضياء الدين بن الاثير (ــ ٦٣٧هـ) ، وهي مادة أصيلة استقى منها هذان العالمان بعض أسسهما في دراسة البلاغة ٠

والقضية الاولى التي اشتركوا فيها هي « اللفظ والمعنى » ، وهذه قضية شغلت النقاد والبلاغيين من قبل ، وذهبوا فيها مذاهب شتى ، فمنهم من مال الى اللفظ واعتنى به ، ومنهم من اهتم بالمعنى وأشاد به ، ومنهم من أخذ بالنظم مقتدياً بالمعتزلة الذين قالوا بالنظم وعلى رأسهم الجاحظ (ــ ٢٥٥هـ) الذي عدّ النسج والتصوير أساس الابداع ، قال وهو يتحدث عن أبي عمرو الشيباني : « وذهب الشيخ الى استحسان المعنى ، والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي والمدني ، وانما الشأن في اقامة الوزن ، وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء ، وفي صحة الطبع

وجودة السبك ، فانما الشعر صناعة وضرب من النسج ، وجنس من التصوير »[1] .

ومنهم محمد بن يزيد الواسطي (ــ ٣٠٦هـ) صاحب كتاب « اعجاز القرآن في نظمه وتأليفه » ، وحمد بن محمد بن ابراهيم الخطابي (ــ ٣٨٨هـ) الذي ذهب الى أن بلاغة كتاب الله العزيز ترجع الى جمال ألفاظه وحسن نظمه وسمو معانيه وتأثيره في النفوس[2] .

ووقف ابن جني عند قضية « اللفظ والمعنى » وذهب الى أن المعنى هو الاساس ، لانه أقوى . ولا يعني ذلك أن اللفظ لاقيمة له ، فقد أولته العرب اهتماماً كبيراً واعتنت به عناية عظيمة ، قال : « ان العرب كما تعنى بألفاظها فتصلحها وتهذبها وتراعيها وتلاحظ أحكامها بالشعر تارة وبالخطب أخرى ، وبالاسجاع التي تلتزمها وتتكلف استمرارها ، فان المعاني أقوى عندها واكرم عليها وأفخم قدراً في نفوسها »[3] . فالمعنى عند ابن جني أقوى واكرم وأفخم ، ولكن العرب لم يهملوا الالفاظ وانما اعتنوا بها « فأول ذلك عنايتها بالفاظها ، فانها لما كانت عنوان معانيها وطريقاً الى اظهار أغراضها ومراميها أصلحوها ، ورتبوها ، وبالغوا في تحبيرها وتحسينها ، ليكون ذلك أوقع لها في السمع ، وأذهب بها في الدلالة على القصد »[4] . فاهتمامهم باللفظ كان من أجل المعنى واظهاره بأجلى صورة وأبهى منظر ، « فاذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظها وحسنوها وحموا حواشيها وهذبوها وصقلوا غروبها وأرهفوها ، فلا ترين أن العناية اذ ذاك انما هي بالالفاظ بل هي عندنا خدمة

---

(١) الحيوان ج ٣ ص ١٣١ ــ ١٣٢ .
(٢) ينظر مناهج بلاغية ص ٣٩ وما بعدها للوقوف على التفاصيل .
(٣) الخصائص ج ١ ص ٢١٥ .
(٤) الخصائص ج ١ ص ٢١٥ ــ ٢١٦ .

منهم للمعاني وتنويه بها وتشريف منها . ونظير ذلك اصلاح الوعاء وتحصينه وتزكيته وتقديسه ، وانما المبغي بذلك منه الاحتياط للموعى عليه وجواره بما يعطر بشره ويعر[٥] جوهره ، كما قد نجد من المعاني الفاخرة السامية ما يهجنه ويغض منه كدرة لفظه وسوء العبارة »[٦] .

وانتهى الى أن العرب انما « تحلي ألفاظها وتدبجها وتشيها وتزخرفها عناية بالمعاني التي وراءها وتوصلا بها الى ادراك مطالبها ، وقد قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « ان من الشعر لحكماً ، وان من البيان لسحرا » ، فاذا كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يعتقد هذا في ألفاظ هؤلاء القوم التي جعلت مصايد وأشراكاً للقلوب وسبباً وسلماً الى تحصيل المطلوب عرف بذلك أن الالفاظ خدم للمعاني ، والمخدوم — لاشك — أشرف من الخادم »[٧] . وبذلك حسم القضية ، وأكد أن المعنى هو الاصل ، ولكن لابد من تهذيب اللفظ وتنقيته ، وتخير حسنه وجميله ، ليخرج المعنى بأحسن صورة وأحلى حلة . وهذا يعني اهتمام العرب باللفظ والمعنى معا ، وعدم الفصل بينهما وان صرح بعضهم بخلاف ذلك .

وأراد ابن جني أن يضع مثالا حيا للحكم على صحة ما ادعى فجاء بالبيتين المشهورين :

ولما قضينا من منى كل حاجة
ومسح بالاركان من هو ماسح
أخذنا بأطراف الاحاديث بيننا
وسالت باعناق المطي الاباطح

(٥) يعر : يعيب .
(٦) الخصائص ج ١ ص ٢١٧ .
(٧) الخصائص ج ١ ص ٢٢٠ .

وكان ابن قتيبة (ـ ٢٧٦هـ) قد جاء بهما مع بيت آخر بينهما[٨] مثالا للكلام الذي حسن لفظه وحلا ، فاذا أنت فتشته لـم تجد هناك فائـدة في المعنى » ، وقال : « هذه الالفاظ كما تـرى أحسن شيء مخارج ومطالـع ومقاطع ، واذا نظرت الى ماتحتها من المعنى وجدته : ولمـا قطعنا أيـام منى واستلمنا الاركان وعالينا ابلنا الانضـاء ، ومضى النـاس لا ينظر الغـادي الرائح ابتدأنا في الحديث وسارت المطي في الابطح . وهذا الصنف في الشعر كثير »[٩] . وليس هذا بالحكم الدقيق لان في الابيات الثلاثة معنى رفيعاً لايحس به ويهتز له الا من أدى مناسك الحج وطاف طواف الوداع وأخـذ يشد رحاله على حدب المهاري ، ويتجه الى أهله وذويه ، وكله شوق الى لقاء الاحبة بعد أن كرمه الله ومن عليه بالعمرة والحج .

ووقف ابن جني عند رأي ابـن قتيبة ولم يذكر اسمه ، وقال : « فان قلت : فانا نجـد من ألفاظهم ماقد نقوه وزخرفوه ووشوه ودبجوه ، ولسنا نجد مع ذلك تحته معنى شريفاً بل لانجده قصداً ولا مقاربا . ألا تـرى الى قوله : « ولما قضينا ... البيتان » فقد ترى الى علو هذا اللفظ ومائه وصقاله وتلامح أنحائه ومعناه مع هذا ماتحسه وتراه ؛ انما هو : لما فرغنا من الحج ركبنا الطريق راجعين وتحدثنا على ظهور الابل . ولهذا نظائر كثيرة شريفة الالفاظ رفيعتها مشروفـة المعاني خفيضتها »[١٠] . وهذا معنى كلام ابـن قتيبة الذي لم ير في الشعر حسنا الا لما في ألفاظه من رونق وحلاوة ، وعذوبة وطلاوة . ولم يأخذ ابن جني بهذا الرأي ، وانما قال : ان « هذا الموضع قد سبق الى التعلق به من لم ينعم النظر فيه ولا رأى ما أراه القوم منه ، وانمـا

(٨) هو :
وشدت على حدب المهارى رحالنا ... ولم ينظر الغادي الذي هو رائـح
(٩) الشعر والشعراء ج ١ ص ٦٦ـ٦٧ .
(١٠) الخصائص ج ١ ص ٢١٧ ـ ٢١٨ .

ذلك لجفاء طبع الناظر وخفاء غرض الناطق » . ثم مضى يوضح مافي الشعر من روعة معنى وجمال لفظ وبديع نسج فقال : « وذلك ان في قوله : « كل حاجة » مايفيد منه أهل النسيب والرقة وذوو الاهواء والمقة مالا يفيده غيرهم ولا يشاركهم فيه من ليس منهم . ألا ترى أن من حوائج منى أشياء كثيرة غيرها الظاهر عليه والمعتاد فيه سواها ، لان منها التلاقي ، ومنها التشاكي ، ومنها التخلي ، الى غير ذلك مما هو تال له ومعقود الكون به . وكأنه صانع عن هذا الموضع الذي أومأ اليه وعقد غرضه اليه بقوله في آخر البيت : « ومسح بالاركان من هو ماسح » أي : انما كانت حوائجنا التي قضيناها ، وآرابنا التي أنضيناها من هذا النوع الذي هو مسح الاركان وما هو لاحق به وجار في القربة من الله مجراه . أي : لم يتعد لهذا القدر المذكور الى ما يحتمله أول البيت من التعريض الجاري مجرى التصريح »[11] . وهذا تخلص بديع في تفسير الشعر اذ ان الشطر الاول : « ولما قضينا من منى كل حاجة » يوهم ويثير تخيلا قد يكون بعيداً عن القصد ، فلما قال : « ومسح بالاركان من هو ماسح » وضع المعنى في نصابه ، وقيده بعد أن كان مطلقا يذهب الظن فيه كل مذهب .

ووقف ابن جني عند البيت الاخير وقال : « وفي هذا ما أذكره لتراه فتعجب ممن لكان عجب منه ووضع معناه ، وذلك انه لو قال : « أخذنا في أحاديثنا » ونحو ذلك لكان فيه معنى يكبره أهل النسيب وتعنو له ميعة الماضي الصليب ، وذلك انهم قد شاع عنهم واتسع في محاوراتهم علو قدر الحديث بين الاليفين والفكاهة بجمع شمل المتواصلين . الا ترى الى قول الهذلي :

وان حديثاً منك لو تعلمينه

جنى النحل في ألبان عوذ مطافل

---

(11) الخصائص ج ١ ص ٢١٨ — ٢١٩ .

وقال آخـر :

وحديثهـا كالغيـث يســـمعه
راعـي ســـنين تتابعت جدبا
فأصاخ يرجو أن يكون حيـــاً
ويقول من فـــــرح : هياربـا

وقال آخـر :

وحدثتني ياســعد عنهـا فزدتني
جنوناً فزدني من حديثـك ياسـعد

وقال المولد :.

وحديثها السحر الحـلال لو انـه
لـم يجن قتـل المسـلم المتحـرز

الابيات الثلاثة[١٢] • فاذا كان قدر الحديث مرسلا عندهم هذا علـى ماترى فكيف به اذا قيده بقوله : « باطراف الاحاديث » وذلك ان في قوله : « أطراف الاحاديث » وحيا خفيا ورمزا حلوا • الا انه يريد بأطرافها مايتعاطاه المحبون ويتفاوضه ذوو الصبابة المتيمون من التعريض والتلويح والايمـاء دون التصريح ، وذلك أحلى وأدمث وأغزل وأنسب من أن يكون مشافهـة وكشفا ومصارحة وجهرا • واذا كان كذلك فمعنى هذين البيتين أعلى عندهم تقدما في نفوسهم من لفظهما ، وان عذب موقعه وأنق له مستمعه • نعم وفي

(١٢) هي في ديوان ابن الرومي ج ٣ ص ١١٦٤ ، والبيتان الآخران :
شرك النفـوس وفتنـة ما مثلهـا
للمطمئـن وعقلـة المستوفـز
ان طال لم يملك وان هي اوجـزت
ود المحـدث أنهـا لـم توجـز

قوله : « وسالت باعناق المطي الاباطح » من الفصاحة مالاخفاء به ، والامر في هذا أسير ، وأعرف ، وأشهر »[13] •

أين عبارة ابن قتيبة المقتضبة التي أذهبت روعة المعنى وجماله من هذا التحليل ؟ ان ابن جني في موقفه هذا يدل على دقة في الفهم ورقة في الذوق وبراعة في التفسير ، لانه لم يسلك مسلكاً نحويا وانما اعتمد على الذوق وما يثير النص في نفس المتلقي من معنى ومشاعر شتى •

وكان لهذه النظرة الادبية صدى واضح في عبد القاهر الذي وقف من هذا الشعر موقف ابن جني ووجد فيه مالم يجده ابن قتيبة من قبل • وكان اعتماده في الشرح على مايثير النص من خيال وما يوحي من معنى مستنداً الى روح البلاغة العربية في التحليل • قال : « فانظر الى الاشعار التي أثنوا عليها من جهة الالفاظ ووصفوها بالسلاسة ونسبوها الى الدماثة ، وقالوا : كأنها الماء جرياناً ، والهواء لطفا ، والرياض حسنا ، وكأنها النسيم ، وكأنها الرحيق مزاجها التسنيم ، وكأنها الديباج الخسرواني في مرامي الابصار ووشي اليمن منشورا على أذرع التجار »[14] • وهذه اشارة الى ابن قتيبة ، ثم قال بعد أن ذكر الابيات الثلاثة : « ثم راجع فكرتك واشحذ بصيرتك ، وأحسن التأمل ودع عنك التجوز في الرأي ، ثم انظر هل تجد لاستحسانهم وحمدهم وثنائهم ومدحهم منصرفا الا الى استعارة وقعت موقعها وأصابت غرضها ، أو حسن ترتيب تكامل معه البيان حتى وصل المعنى الى القلب مع وصول اللفظ الى السمع ، واستقر في الفهم مع وقوع العبارة في الاذن ، والا الى سلامة الكلم من الحشو غير المفيد والفضل الذي هو كالزيادة في التجديد ، وشيء داخل المعاني المقصودة مداخلة الطفيلي الذي يستثقل

(١٣) الخصائص ج ١ ص ٢١٩ — ٢٢٠ •
(١٤) أسرار البلاغة ص ٢١ •

مكانه ، والاجنبي الذي يكره حضوره ، وسلامته من التقصير الذي يفتقر معه السامع الى تطلب زيادة بقيت في نفس المتكلم فلم يدل عليها بلفظها الخاص بها واعتمد دليل حال غير مفصح ، أو نيابة مذكور ليس لتلك النيابة بمستصلح » . وأخذ يوضح سبب الحسن والروعة في الشعر فقال : « وذلك ان أول مايتلقاك من محاسن هذا الشعر انه قال : « ولما قضينا من منى كل حاجة » فعبر عن قضاء المناسك بأجمعها والخروج من فروضها وسننها من طريق أمكنه ان يقصر معه اللفظ وهو طريقة العموم ، ثم نبه بقوله : « ومسح بالاركان من هو ماسح » على طواف الوداع الذي هو آخر الامر ودليل المسير الذي هو مقصوده من الشعر ، ثم قال : « أخذنا بأطراف الاحاديث بيننا » فوصل بذكر مسح الاركان ماوليه من زم الركاب وركوب الركبان ، ثم دل بلفظة « الاطراف » على الصفة التي يختص بها الرفاق في السفر من التصرف في فنون القول وشجون الحديث أو ماهو عادة المتطوفين من الاشارة والتلويح والرمز والايماء ، وأنبأ بذلك عن طيب النفوس وقوة النشاط ، وفضل الاغتباط كما توجبه ألفة الاصحاب وأنسة الاحباب ، وكما يليق بحال من وفق لقضاء العبادة الشريفة ورجا حسن الاياب ، وتنسم روائح الاحبة والاوطان واستماع التهاني والتحايا من الخلان والاخوان ، ثم زان ذلك كله باستعارة لطيفة طبق فيها مفصل التشبيه وأفاد كثيرا من الفوائد بلطف الوحي والتنبيه . فصرح أولا بما أومأ اليه في الاخذ بأطراف الاحاديث من أنهم تنازعوا أحاديثهم على ظهور الرواحل وفي حالة التوجه الى المنازل ، وأخبر بعد بسرعة السير ووطاءة الظهر ، اذ جعل سلاسة سيرها بهم كالماء تسيل به الاباطح ، وكان في ذلك مايؤكد ماقبله ، لان الظهور اذا كانت وطيئة وكان سيرها السير السريع زاد ذلك في نشاط الركبان ومع ازدياد النشاط يزداد الحديث طيبا . ثم قال : « بأعناق المطي » ولم يقل « بالمطي » لان السرعة

والبطء يظهران غالبا في أعناقها ويبين أمرهما من هواديها وصدورها ، وسائر أجزائها تستند اليها في الحركة وتتبعها في الثقل والخفة ، ويعبر عن المرح والنشاط اذا كان في أنفسها بأفاعيل لها خاصة في العنق والرأس ويدل عليهما بشمائل مخصوصة في المقاديم • فقل الان هل بقيت عليك حسنة تحيل فيها على لفظة من ألفاظها حتى أن فضل تلك الحسنة يبقى لتلك اللفظة ولو ذكرت على الانفراد وأزيلت عن موقعها من نظم الشاعر ونسجه وتأليفه وترصيفه ، وحتى تكون في ذلك كالجوهرة التي هي ــ وان ازدادت حسنا بمصاحبة اخواتها ، واكتسبت بهاءا بمصاحبة أترابها ــ فانها اذا جليت للعين فردة وتركت في الخيط فذة لم تقدم الفضيلة الذاتية والبهجة التي في حسنها مطوية •

والشذرة من الذهب تراها بصحبة الجواهر لها في القلادة واكتنافها لها في عنق الغادة ، وصلتها بريق حمرتها والتهاب جوهرها بأنوار تلك الدرر التي تجاورها ولألاء اللآلىء التي تناظرها تزداد جمالا في العين ولطف موقع من حقيقة الزين • ثم هي اذا جرمت صحبة تلك العقائل ، وفرق الدهر الخؤون بينها وبين هاتيك النفائس لم تعر من بهجتها الأصلية ، ولم تذهب عنها فضيلة الذهبية • كلا ليس هذا بقياس الشعر الموصوف بحسن اللفظ ، وان كان لايبعد أن يتخيله من لاينعم النظر ولايتم التدبر ، بل حق هذا المثل أن يوضع في نصرة بعض المعاني الحكيمة والتشبيهية بعضا ، وازدياد الحسن فيها بأن يجامع شكل منها شكلا ، وان يصل الذكر بين متدانيات في ولادة العقول اياها ومتجاورات في تنزيل الأفهام لها» •

فالحسن في الشعر لايرجع الى الالفاظ وانما الى شبكة العلاقات بينها وهو ماسماه عبدالقاهر بالنظم ، ولو أخذت ألفاظ الأبيات منفردة لم يكن لها هذا الحسن • فالنظم هو الذي أكسب الأبيات مزية وفضلا ، وأظهر معناها وجلاه ، وكان للاستعارة موقع حسن ، ولولا النظم لم يكن لها هذا الحسن ،

ولم تصبح من الخاص النادر الذي لايـوجد الا في كلام الفحول • وتعمق عبدالقاهر في ايضاح هذه المسألة فقال في : « وسالت باعناق المطي الأباطح» : « أراد أنها سارت سيراً حثيثاً في غاية السرعة ، وكانت بسرعة في لين وسلاسة حتى كأنها كانت سيولا وقعت في تلك الأباطح فجرت بها»[١٥] • وليست الغرابة في هذه الاستعارة لان جعل الشاعر «المطي في سرعة سيرها وسهولته كالماء يجري في الأبطح ، فان هذا شبه معروف ظاهر ، ولكن الدقة واللطف في خصوصية أفادها بان جعل « سال » فعلا للاباطح ، ثم عداه بالباء بـأن أدخل « الاعناق » في البين ، فقال : « بأعناق المطي » ولم يقل : « المطي » • ولو قال : « سالت المطي بالاباطح » لم يكن شيئا »[١٦] •

وهذه خطوة واسعة تضاف الى خطوة ابن جني ، فقد أخذ عبدالقاهر طرف السلك ثم مضى يسلك فيه الدر النضيد ، ويظهر روعة الأبيات وجمـالها • وكان من أثر هذه الخطوة أن نظر الى اللفظ والمعنى نظرة ثاقبة ، ورأى أنهما يكونان نسيج النص وهو ماسماه بالنظم ، ولكنه ـ كابن جني ـ رأى أن الالفاظ خدم للمعاني وبنى تصوره البلاغي والنقدي على هـذا الأسـاس ولذلك لم يقف عند شروط فصاحة اللفظة كما فعل ابن سـنان الخفاجي[١٧] وانما اهتم بصياغة الكلام وقال : ان الالفاظ رموز للمعاني التي تدل عليهـا هذه الرموز أي انها علامات للاشارة الى شيء ما ، وكرر القول بان الالفـاظ خدم للمعاني وأوعية ليزيل شبهة علقت بالاذهان وهي أن للالفاظ مزيـة وان كانت منفردة • قال : « اذ الالفاظ خدم المعاني والمصرفة في حكمها ، وكانت المعاني هي المالكة سياستها المستحقة طاعتها ، فمن نصر اللفظ على المعنى كان

(١٥) دلائل الاعجاز ص ٧٤ •
(١٦) دلائل الاعجاز ص ٧٥ ـ ٧٧ ، وتنظر ص ٢٩٤ ـ ٢٩٦ •
(١٧) تنظر شروط الفصاحة في سر الفصاحة ص ٦٥ وما بعدها •

كمن أزال الشيء عن جهته وأحاله عن طبيعته »[18] . ولايعني هذا انه أهمل الالفاظ اهمالا تاماً ، فهو يؤمن بجمالها وروعتها ، قال : «واعلم أنا لا نأبى أن تكون مذاقة الحروف وسلامتها مما يثقل على اللسان داخلا فيما يوجب الفضيلة ، وأن تكون مما يؤكد أمر الاعجاز ، وانما الذي ننكره ونفيّل[19] رأي من يذهب اليه ان يجعله معجزاً به وحده ويجعله الأصل والعمدة»[20] أي انه لاينكر فصاحة الالفاظ ونعمها كل الانكار ، ولكنه لايدخلها في تفسير الاعجاز ، ولذلك لم يدرسها على انفراد كابن سنان ، لان النظم هو الأساس أي النسج والتصوير ، وبه كان القرآن الكريم معجزا .

ولم ينتفع ابن الاثير بخطوتي ابن جني وعبدالقاهر في تفسير الشعر ، واكتفى بنقل كلام ابن جني نقلا وانتهى الى ما انتهى اليه السابق وهو ان « الالفاظ خدم للمعاني ، والمخدوم ــ لاشك ــ أشرف من الخادم »[21] ، وهذا رأي ابن جني وكلامه ، ولكنه لم يشر اليه ، ليوهم ان تحليل الأبيات والنتيجة من بنات أفكاره .

ويتصل بقضية اللفظ والمعنى موضوع الحكم على المعاني والترجيح بينها ، وكان ابن جني قد تعرض له في مقدمة شرح ديوان المتنبي فقال في البيت :

نهبت من الاعمار ما لو حويته لهنئت الدنيا بانك خالد

« فهذا هو المدح الموجه ، لانه كرّ آخره على أوله بقوله : « لهنئت » ».

وقال في البيت :

وما زال أهل الارض يشتبهون لي اليك فلما لحت لي لاح فرده

(18) أسرار البلاغة ص ٨ .
(19) فيل رأيه : قبحه وخطأه لفساده .
(20) دلائل الاعجاز ص ٥٢٢ .
(21) ينظر المثل السائر ج ١ ص ٣٥٢ وما بعدها ، الجامع الكبير ص ٧٠ــ٧٢ .

« هذا بيت يحتمل معنيين : مدحاً وهجاءاً » [٢٢] .

وبنى ابن الاثير فصل « الحكم على المعاني » والترجيح بينها على هذه الفكرة ، وأشار الى قراءة ابن جني ديوان المتنبي على الشاعر فقال : « وحكى ابو الفتح ابن جني قال : قرأت على أبي الطيب ديوانه الى أن وصلت الى قصيدته التي أولها : «أغالب فيك الشوق والشوق أغلب » فأتيت منها على هذا البيت وهو :

وما طربي لما رأيتك بدعة ... لقد كنت أرجو أن أراك فأطرب

فقلت له : يا أبا الطيب لم تزد على أن جعلته أبا زنة ، فضحك لقولي» [٢٣] . ثم قال : «وهذا القسم من الكلام يسمى « الموجّه » أي له وجهان ، وهو مما يدل على براعة الشاعر وحسن تأتيه » . وهذه عبارة مقطوعة من كلام ابن جني ، وهي توهم بان التسمية له في حين أنها للسابق .

ويتصل بهذه القضية أيضا موضوع «قوة اللفظ لقوة المعنى» وكان ابن جني قد عقد له باباً وقال انه : «فصل من العربية حسن ، ومنه قولهم : « خَشُنَ » و «اخشَوشَنَ» . فمعنى «خَشُنَ» دون معنى « اخشوشن » لما فيه من تكرير العين وزيادة الواو ...

وكذلك قولهم : « أعشب المكان » فاذا أرادوا كثرة العشب فيه قالوا : « اعشوشَبَ » ومثله : « حلا » و «احلولى» و «خَلُقَ» و « اخلولق » ، و « غَدِنَ » و « اغدودن » [٢٤] . ومثله باب « فعل وافتعل» نحو «قدر واقتدر» ، فاقتدر أقوى من قولهم : « قدر » [٢٥] . ثم قال « ومن ذلك أيضا قولهم : «رجل جميل» و « وضيء » فاذا أرادوا المبالغة في ذلك قالوا

---

(٢٢) الفسر ج ١ ص ٢٥ .
(٢٣) المثل السائر ج ١ ص ٣٥ . أبوزنة : كنية القرد .
(٢٤) خلق : كان خليقا وجديرا . اغدودن : لان ، والغدن : اللين .
(٢٥) الخصائص ج ٣ ص ٢٦٤ .

« وُضّاء » و « جُمّال » فزادوا في اللفظ هذه الزيادة لزيادة معناه»[٢٦]. وانتهى الى أن الألفاظ أدلة المعاني فاذا « زيد فيها شيء أوجبت القسمة له زيادة المعنى به » [٢٧].

ولم يعن عبدالقاهر بمثل هذا الموضوع، لانه نظر الى اللفظة من خلال السياق، فهي تكتسب الفضيلة أو تفقدها بانضمامها الى الألفاظ الأخرى مكونة جملا وعبارات. ووقف ابن الاثير عند هذه المسألة وعقد فصلا في « قوة اللفظ لقوة المعنى »، وقال ان هذا النوع « قد ذكره أبو الفتح ابن جني في كتاب الخصائص، الا انه لم يورده كما أوردته أنا، ولانبه على ما نبهت عليه من النكت التي تضمنته » [٢٨]. والحق انه لم يخرج عن ابن جني كثيرا، فقد بدأ بحثه بما انتهى اليه السابق، قال: « اعلم ان اللفظ اذا كان على وزن من الاوزان ثم نقل الى وزن آخر أكثر منه فلابد من ان يتضمن من المعنى اكثر مما تضمنه أولا، لان الالفاظ أدلة على المعاني وأمثلة للابانة عنها، فاذا زيد في الالفاظ أوجبت القسمة زيادة المعاني، وهذا لانزاع فيه لبيانه، وهذا النوع لايستعمل الا في مقام المبالغة »، وهذا ماختم به ابن جني كلامه. ثم بدأ ابن الاثير بما بدأ به ابن جني وذكر من الامثلة «خشن» و «اخشوشن» و «أعشب» و «اعشوشب» و «قدر» و «اقتدر» وقوله تعالى: «فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر»[٢٩]، وأضاف أمثلة شعرية لم يذكرها ابن جني.

والقضية الثانية التي اشترك فيها الثلاثة هي « المجاز » وقد عقد له ابن جني في الخصائص باباً في الفرق بينه وبين الحقيقة، وباباً في أنه اذا اكثر لحق بالحقيقة، وباباً في اقرار الالفاظ على أوضاعها الاول مالم يدع داع الى

(٢٦) الخصائص ج ٣ ص ٢٦٦ .
(٢٧) الخصائص ج ٣ ص ٢٦٨ .
(٢٨) المثل السائر ج ٢ ص ٦٠ ، وينظر الجامع الكبير ص ١٩٣ .
(٢٩) القمر ، الآية ٤٢ .

الترك والتحول [٣٠]. وهذه من المسائل التي شغلت البلاغيين والنقاد ، وكان عبدالقاهر قد وقف عندها طويلا وخاض في شعابها .وليس فيما ذكره ابن جني الا ملامح عامة ، ولعل أهم مسألة تشير الانتباه هي قوله : «وانما يقع المجاز ويعدل اليه عن الحقيقة لمعان ثلاثة هي : الاتساع ، والتوكيد ، والتشبيه ، فان عدم هذه الأوصاف كانت الحقيقة البتة »[٣١] . وذكر أمثلة وضح فيها هذا المعنى ، وهذا ما قال به البلاغيون ومنهم عبدالقاهر ، الا ان ابن الاثير رفض ما قاله ابن جني وفند قوله على الرغم من أنه قال : «والذي انكشف لي بالنظر الصحيح أن المجاز ينقسم قسمين : توسع في الكلام ، وتشبيه » [٣٢] ، وانه أخذ بتقسيم ابن جني في كتابه «الجامع الكبير» وقال : «واعلم أنما يعدل عن الحقيقة الى المجاز لمعان ثلاثة وهي : الاتساع ، والتشبيه ، والتوكيد فان عدمت هذه الأوصاف كانت الحقيقة البتة »[٣٣] . وهو ما ذكره ابن جني، ولم يعلق عليه ، ولكنه انتقده في « المثل السائر » ، وكان السابق قد قال في قوله تعالى : «وأدخلناه في رحمتنا » [٣٤] : « أما السعة فلانه كأنه زاد في اسماء الجهات والمحال اسما هو الرحمة ، وأما التشبيه فلانه شبه الرحمة ــ وان لم يصح دخولها ــ بما يجوز دخوله ، فلذلك وضعها موضعه ، وأما التأكيد فلانه أخبر عن العرض بما يخبر به عن الجوهر ، وهذا تعال بالعرض

(٣٠) ينظر الخصائص ج ٢ ص ٤٤٢ ، ٤٤٧ ، ٤٥٧ . وكانت عند ابن جني فكرة وضع كتاب في المجاز ، ولكنه عدل عنه لضيق الوقت . (ينظر التمام ص ١٣١) .

(٣١) الخصائص ج ٢ ص ٢٤٢ . قال في التمام ص ١٣٠ ــ ١٣١ : « ولاتترك الحقيقة الى المجاز الا لضرب من المبالغة ، ولولا ذلك لكانت الحقيقة أولى من المجاز » .

(٣٢) المثل السائر ج ١ ص ٣٥٦ .

(٣٣) الجامع الكبير ص ٣٠ .

(٣٤) الأنبياء ، الآية ٧٥ .

وتفخيم منه ، اذ صير الى حيز ما يشاهد ويلمس ويعاين »[٣٥] .

قال ابن الاثير : «والنظر يتطرق اليه من ثلاثة أوجه :

الأول : انه جعل وجود هذه المعاني الثلاثة سببا لوجود المجاز ، بل وجود واحد منها سببا لوجوده . ألا ترى أنه اذا وجد التشبيه وحده كان ذلك مجازا ، واذا وجد الاتساع وحده كان ذلك مجازا ، ثم ان كان وجود هذه المعاني الثلاثة سببا لوجود المجاز كان عدم واحد منها سبباً لعدمه ...

وأما الوجه الثاني فانه ذكر التوكيد والتشبيه وكلاهما شيء واحد على الوجه الذي ذكره ...

وأما الوجه الثالث فانه قال : « أما الاتساع فانه زاد في اسماء الجهات والمحال كذا وكذا » . وهذا القول مضطرب شديد الاضطراب ؛ لانه ينبغي على قياسه أن يكون «جناح الذل» في قوله تعالى : « واخفض لهما جناح الذل »[٣٦] زيادة على أسماء الطيور ، وذلك انه زاد في اسماء الطيور اسما هو الذل ... »[٣٧] .

وهذا تمحل من ابن الاثير ؛ لان ابن جني لم يقل باجتماع المعاني الثلاثة لكي يقع المجاز ، وانما هي أنواع له أو أغراض ، والتوكيد ليس التشبيه وان كان التشبيه يؤتى به للتوكيد ، وقياس « جناح الذل » على « الرحمة » غير دقيق لانه ليس كل شيء يحمل على المجاز .

ويتصل بالمجاز التشبيه المقلوب في رأي من يدخل التشبيه في المجاز ، وقد عقد له ابن جني باباً سماه « غلبة الفروع على الاصول » وقال : « هذا فصل من فصول العربية طريف تجده في معاني العرب كما تجده في معاني

(٣٥) الخصائص ج ٢ ص ٤٤٣ .
(٣٦) الاسراء ، الآية ٢٤ .
(٣٧) المثل السائر ج ١ ص ٣٦٦ وما بعدها .

الأعراب ، ولا تكاد تجد شيئا من ذلك الا والغرض فيه المبالغة »[٣٨] • ومن ذلك قول ذي الرمة :

ورمل كأوراك العذارى قطعته   اذا ألبسته المظلمات الحنادس

« أفلا ترى ذا الرمة كيف جعل الأصل فرعاً والفرع أصلا ، وذلك ان العادة والعرف في نحو هذا أن تشبه أعجاز النساء بكثبان الأنقاء »[٣٩] •

وهذا اللون من التشبيه كثير في العربية، وقد وقف عنده عبدالقاهر وقال وهو يوازن بين التشبيه والتمثيل : « وذلك جعل الفرع أصلا والأصل فرعا ، وهو اذا استقريت التشبيهات الصريحة وجدته يكثر فيها ، وذلك نحو انهم يشبهون الشيء فيها بالشيء في حال ثم يعطفون على الثاني فيشبهونه بالأول فترى الشيء مشبها مرة ومشبها به أخرى »[٤٠] • وذكر له أمثلة كثيرة ووقف عندها طويلا ، ثم ذكر مثالا للتمثيل وهو قول الشاعر :

وكأن النجوم بين دجاه   سنن لاح بينهن ابتداع

فتشبيه السنن بالنجوم تمثيل ، والشبه عقلي ، ولكن الشاعر عكس فشبه النجوم بالسنن • وطريقة العكس هنا « لاتجيء في التمثيل على حدها في التشبيه الصريح ، وانها اذا سلكت فيه كان مبنيا على ضرب من التأول والتخيل يخرج عن الظاهر خروجاً ظاهراً ويبعد عنه بعداً شديدا • فالتأويل في البيت انه لما شاع وتعورف وشهر وصف السنة ونحوها بالبياض والاشراق ، والبدعة بخلاف ذلك كما قال النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ « أتيتكم بالحنيفية البيضاء ليلها كنهارها » وقيل : «هذه حجة بيضاء » وقيل للشبهة وكل ماليس بحق : « انه مظلم » وقيل : « سواد الكفر » و « ظلمة الجهل »

(٣٨) الخصائص ج ١ ص ٣٠٠ •
(٣٩) الخصائص ج ١ ص ٣٠٠ •
(٤٠) أسرار البلاغة ص ١٨٧ •

يخيل انالسنن كلها جنس من الأجناس التي لها اشراق ونور وابيضاض في العين ، وان البدعة نوع من الأنواع التي لها فضل اختصاص بسواد اللون فصار تشبيهه النجوم بين الدجى بالسنن بين الابتداع على قياس تشبيههم النجوم في الظلام ببياض الشيب في سواد الشباب ، أو بالانوار وائتلافها بين النبات الشديد الخضرة . فهذا كله ههنا كأنه ينظر الى طريقة قوله :

وبدا الصباح كأنّ غرّته ... وَجْهُ الخليفة حين يُمتَدحُ

في بناء التشبيه على تأويل هو غير الظاهر . الا ان التأويل هناك انه جعل في وجه الخليفة زيادة من النور والضياء يبلغ بها حال الصباح أو يزيد ، والتأويل ههنا انه خيل ماليس بمتلون كأنه متلون ثم بنى على ذلك »(٤١) . فالفرع قد يجعل أصلا ، والاصل قد يجعل فرعا في التمثيل ايضاً ، ولكن على ضرب من التأول والتخييل .

وتحدث ابن الأثير عن هذا اللون من التشبيه وقال : «واعلم أن من التشبيه ضربا يسمى « الطرد والعكس » وهو أن يجعل المشبه به مشبها ، والمشبه مشبها به ، وبعضهم يسميه غلبة الفروع على الاصول ، ولا تجد شيئاً من ذلك الا والغرض منه المبالغة (٤٢) . وهذا كلام ابن جني نفسه ، ثم ذكر بيت ذي الرمة : «ورمل كأوراك ...»(٤٣) وعلق عليه بعبارات ابن جني فقال : « ألا ترى الى ذي الرمة كيف جعل الاصل فرعا والفرع أصلا ؟ وذلك أن العادة والعرف في هذا أن تشبه أعجاز النساء بكثبان الأنقاء ، وهو مطرد في بابه فعكس ذو الرمة القصة في ذلك فشبه كثبان الانقاء باعجاز النساء ، وانما فعل

(٤١) اسرار البلاغة ص ٢٠٩ .
(٤٢) المثل السائر ج ١ ص ٤٢١ ، وينظر الجامع الكبير ص ٩٧ .
(٤٣) في المثل السائر : « ورمل كارداف ... »وفي الجامع الكبير : « ورمل كأوراك ... » .

ذلك مبالغة ، أي قد ثبت هذا الموضع وهذا المعنى لأعجاز النساء ، وصار كأنه الأصل حتى شبهت به كثبان الأنقاء »[٤٤] .

واشار الى كلام ابن جني على «غلبة الفروع على الاصول » وقال : «وهذا قد ذكره أبو الفتح ابن جني في كتابه الخصائص وأورده هكذا مهملا »[٤٥] . والحقيقة ان كلام ابن جني كان مفصلا وفيه أمثلة كثيرة بخلاف كلام ابن جني الذي اقتصر على ثلاثة أبيات كان ابن جني قد ذكر منها اثنين .

والقضية الثالثة هي «البناء اللغوي » ويراد به تركيب الجملة وما يطرأ عليها من تغيرات توثر في المعنى . وقد عقد ابن جني بابا سماه «شجاعة العربية »[٤٦] ، وتحدث فيه عن الحذف ، والزيادة ، والتقديم ، والتأخير ، والحمل على المعنى ، والتحريف . ولاتكاد تخرج معالجته لهذه الموضوعات عن معالجة النحاة ، فهو يذكر حذف الجملة والمفرد والحركة ، ويتعرض للتقديم والتأخير ، ويتحدث عن الفروق والفصول كالفرق بين المضاف والمضاف اليه ، والفصل بين الفعل والفاعل بالأجنبي . ولم يفصل القول في هذه الأنواع ، ولم ينبه على ماتثيره من معان ، وكان عبدالقاهر قد أولى هذه الموضوعات عناية كبيرة في كتابه «دلائل الاعجاز » وكانت تعليقاته على النصوص تنطق بما يشف عما تحت التركيب ، فكانت دراسته هذه أعظم إنجاز لغوي في العربية .

وعقد ابن الاثير فصلا في «التقديم والتأخير » وفصلا في «الايجاز»[٤٧] وقد اتسمت دراسته بالطابع الأدبي وغلبة الذوق على القاعدة ، وكان اكثر

(٤٤) المثل السائر ج ١ ص ٤٢١ .
(٤٥) المثل السائر ج ١ ص ٤٢٢ .
(٤٦) ينظر الخصائص ج ٢ ٣٦٠ وما بعدها .
(٤٧) ينظر المثل السائر ج ٢ ص ٣٨ ، ٧١ ، والجامع الكبير ص ١٠٨ ، ١٢٢ .

توفيقاً من ابن جني في معالجة هذه الموضوعات ، لانه لم يقف عند قواعد النحو ، وانما اهتم بما توحي الاساليب من معنى يؤثر في النفس . وقد وافق ابن جني في تسمية هذه الموضوعات « شجاعة العربية » وبحث ستة منها بهذا العنوان وهي : الالتفات ، والاخبار عن الفعل الماضي بالمضارع وعن الفعل المضارع بالماضي ، [48] وعكس الظاهر ، والحمل على المعنى ، والتقديم والتأخير ، والاعتراض[49] . ثم عاد وأطلق « شجاعة العربية » على الالتفات وحده «لان الشجاعة هي الاقدام ، وذلك ان الرجل الشجع يركب مالا يستطيعه غيره ويتورد مالا يتورده سواه ، وكذلك هذا الالتفات في الكلام فان اللغة العربية تختص به دون غيرها من اللغات » [50].

واطلاق « شجاعة العربية » على غير الالتفات كما فعل ابن جني في « الخصائص » وابن الاثير في « الجامع الكبير » اكثر شمولا ، فهو يضم الحذف ، والزيادة ، والتقديم ، والتأخير ، والحمل على المعنى ، والتحريف[51] كما يشمل المجاز لان منه كثيرا من « باب الشجاعة في اللغة من الحذوف والزيادات ، والتقديم ، والتأخير ، والحمل على المعنى ، والتحريف »[52] . ولعل أقرب مفهوم معاصر له هو « الانزياح » الذي يحدث عند الخروج عن المعاني الحقيقية للالفاظ والتراكيب النحوية المعهودة .

ويتصل بالتركيب اللغوي « الاعتراض » وقد عقد له ابن جني باباً وقال : « اعلم أن هذا القبيل من هذا العلم كثير ، قد جاء في القرآن وفصيح الشعر

(٤٨) بحث ابن الاثير الالتفات في المثل السائر ج ٢ ص ٤ ، وقسمه ثلاثة أقسام: الرجوع من الغيبة الى الخطاب ، ومن الخطاب الى الغيبة ـ الرجوع عن المستقبل الى فعل الأمر ـ الاخبار بالفعل الماضي عن المستقبل .
(٤٩) ينظر الجامع الكبير ص ٩٨ وما بعدها .
(٥٠) المثل السائر ج ٢ ص ٤ .
(٥١) الخصائص ج ٢ ص ٣٦٠ .
(٥٢) الخصائص ج ٢ ص ٤٤٦ .

ومنثور الكلام ، وهو جار عند العرب مجرى التأكيد ، فلذلك لايشنع عليهم ولا يستنكر عندهم ان يعترض به بين الفعل وفاعله ، والمبتدأ وخبره ، وغير ذلك مما لايجوز الفصل فيه بغيره الاشاذاً أو متأولا »(٥٣) ومن ذلك قوله تعالى : « فلا أقسم بمواقع النجوم • وانه لقسم لو تعلمون عظيم • انه لقرآن كريم »(٥٤) ، وفيه اعتراضان :

أحدهما : قوله : « وانه لقسم لو تعلمون عظيم » لانه اعتراض به بين القسم الذي هو قوله : « فلا أقسم بمواقع النجوم » وجوابه الذي قوله : « انه لقرآن كريم » •

الثاني : وفي هذا الاعتراض نفسه اعتراض آخر بين الموصوف الذي هو « قسم » وصفته التي هي « عظيم » ، وهو قوله : « لو تعلمون » • قال ابن جني : « فذانك اعتراضان كما ترى ، ولو جاء الكلام غير معترض فيه لوجب أن يكون : « فلا أقسم بمواقع النجوم ، انه لقرآن كريم ، وانه قسم عظيم لو تعلمون » •

ومنه اعتراض : « والحوادث جمة » بين الفعل وفاعله في قول امرىء القيس :

ألا هل أتاها ــ والحوادث جمة ــ
بأن امرأ القيس بن تملك بيقرا

ومنه اعتراض : « وأبيك » بين الموصول والصلة في قول الشاعر :

ذاك الذي ــ وأبيك تعرف مالك والحق يدفع ترّهات الباطلِ

ومنه الاعتراض بين الفعل ومفعوله ، وبين المفعول الاول والثاني ، وبين اسم ان وخبرها ، وبين المضاف والمضاف اليه ، وبين المبتدأ وخبره • والاعتراض

(٥٣) الخصائص ج ١ ص ٣٣٥ .
(٥٤) الواقعة ، الآيات ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ .

«في شعر العرب ومنثورها كثير وحسن ، ودلل على فصاحة المتكلم وقوة نفسه وامتداد نفسه ، وقد رأيته في أشعار المحدثين ، وهو في شعر ابراهيم بن المهدي اكثر منه في شعر غيره من المولدين »(٥٥) .

وعقد ابن الاثير للاعتراض فصلا ، وقال ان « بعضهم يسميه الحشو »(٥٦) وأشار الى أن « الجائز منه وغير الجائز انما يؤخذ من كتب العربية فانه يكون مستقصى فيها » ولذلك لم يتطرق اليه لان كتابه « موضوع لمن استكمل معرفة ذلك » وليس المراد ههنا « من الاعتراض الا مايفرق بين الجيد والرديء ، لاما يعلم به الجائز وغير الجائز » ولذلك ضمن كتابه الكلام على الاعتراض الذي شمل وصفي الفصاحة والبلاغة فقط(٥٧) . وكأن ابن الاثير يعرض في هذا الكلام بابن جني الذي نظر الى الموضوع نظرة نحوية . ثم قسم الاعتراض قسمين :

الاول : لايأتي في الكلام الا لفائدة ، وهو جار مجرى التوكيد ، وهذه عبارة ابن جني : « وهو جار عند العرب مجرى التوكيد » . ثم ذكر مثالا له الايات التي استشهد بها ابن جني ، وقال ان فيها اعتراضين ، وبيّنهما كما ذكرهما ابن جني ، وختم كلامه بعبارة السابق نفسها : « فذانك اعتراضان كما ترى » وأضاف اليه فائدة هذا الاعتراض فقال : « انما هي تعظيم لشأن المقسم به في نفس السامع ، ألا ترى الى قوله : « لو تعلمون » اعتراضا بين الموصوف والصفة ، وذلك الامر بحيث لو علم وفي حقه من التعظيم ، وهذا مثل قولنا : « ان هذا الامر لعظيم بحيث لو تعلم يافلان عظمته لقدرته حق قدره » فان ذلك يكبر في نفس المخاطب ، ويظل متطلعا الى معرفة عظمه » .

(٥٥) الخصائص ج ١ ص ٣٤١ .
(٥٦) المثل السائر ج ٢ ص ١٨٣ .
(٥٧) ينظر المثل السائر ج ٢ ص ١٨٤ ، الجامع الكبير ص ١١٨ .

وذكر آيات اخرى ، وأشار الى فائدة الاعتراض فيها ، ثم ذكر أبياتا شعرية ، ولبه على مافيها من اعتراض .

الثاني : وهو الذي يؤثر في الكلام نقصا وفي المعنى فسادا ، وهو مما يبحث في التقديم والتأخير ، ومن ذلك قول بعضهم :

فقد ــ والشك ــ بين لي عناء
بوشك فراقهم صرد يصيح

قال : « فان في هذا البيت من رديء الاعتراض ما أذكره لك ، وهو الفصل بين « قد » والفعل الذي هو « بين » ، وذلك قبيح لقوة اتصال « قد » بما تدخل عليه من الافعال . ألا تراها تعد مع الفعل كالجزء منه ، ولذلك ادخلت عليها اللام المراد بها توكيد الفعل كقوله تعالى : « ولقد أوحي اليك والى الذين من قبلك »[٥٨] وقوله تعالى : « ولقد علموا لمن اشتراه »[٥٩] ، وقول الشاعر :

ولقد أجمع رجلي بها
حذر الموت واني لفرور

الا ان فصل بين « قد » والفعل بالقسم فان ذلك لابأس به ، نحو قولك : « قد ــ والله ــ كان ذاك » . وقد فصلَ في هذا البيت أيضا بين المبتدأ الذي هو « الشك » وبين الخبر الذي هو عناء بقوله : « بين لي » ، وفصل بين الفعل الذي هو « بين » وبين فاعله الذي هو « صرد » بخبر المبتدأ الذي هو « عناء » فجاء معنى البيت كما تراه كأنه صورة مشوهة قد نقلت أعضاؤها بعضها الى مكان بعض »[٦٠] .

وكان ابن جني قد وقف عند هذا البيت في باب الضرورة وقال :

(٥٨) الزمر ، الآية ٦٥ .
(٥٩) البقرة ، الآية ١٠٢ .
(٦٠) المثل السائر ج ٢ ص ١٩٠ ، الجامع الكبير ص ١٢١ .

« أراد « فقد بين لي صرد يصيح بوشك فراقهم والشك عناء » . فقد ترى الى مافيه من الفصول التي لاوجه لها ولا شيء منها »[٦١] . فهذا في الشعر جائز الا انه لايستساغ في النثر والى هذا أشار ابن الاثير بقوله : « واعلم أن الناثر في استعمال ذلك اكثر ملامة من الناظم ، وذاك ان الناظم مضطر الى اقامة ميزان الشعر ، وربما كان مجال الكلام عليه ضيقا فيلقيه طلب الوزن في مثل هذه الورطات ، وأما الناثر فلا يضطر الى اقامة الميزان الشعري بل يكون مجال الكلام عليه واسعا ، ولهذا اذا اعترض في كلامه اعتراضا يفسده توجه عليه الانكار وحق الذم »[٦٢] . ولعل الوقوف على البيت المنسوب الى الفرزدق وهو :

وما مثله في الناس الا مملكا
أبو أمه حي أبوه يقاربه

يوضح الاتفاق والاختلاف بين هؤلاء الثلاثة الاعلام ، وكان ابن جني قد ذكره وعلق عليه بقوله : « انما جاز مافيه من الفصل بين ما لايحسن فصله لضرورة الشعر »[٦٣] ، وقوله : « ومراده فيه معروف وهو فيه غير معذور »[٦٤] . وقوله : « وحديث مافيه معروف فلندعه ولنعد عنه »[٦٥] . وان الفصل في البيت بين أجزاء الكلام أدى الى التعقيد وهو ضرورة شعرية ، ولا يدل هذا على ضعف الشاعر وانما قد يكون لانفعاله . ولابن جني تعليل طريف قال : « فمتى رأيت الشاعر قد ارتكب مثل هذه الضرورة على قبحها وانخراق الاصول بها ، فاعلم أن ذلك على ماجشمه منه وان دل من وجه

(٦١) الخصائص ج ١ ص ٣٣٠ .
(٦٢) المثل السائر ج ٢ ص ١٩١ ، الجامع الكبير ص ١٢٢ .
(٦٣) الخصائص ج ١ ص ١٤٧ .
(٦٤) الخصائص ج ١ ص ٣٣٠ .
(٦٥) الخصائص ج ٢ ص ٣٩٣ .

على جوره وتعسفه ، فانه من وجه آخر مؤذن بصياله وتخمطه[٦٦] ، وليس بقاطع دليل على ضعف لغته ولا قصوره على اختياره الوجه الناطق بفصاحته بل مثله في ذلك عندي مثل مجري الجموح بلا لجام ووارد الحرب الضروس حاسرا من غير احتشام ، فهو وان كان ملوما في عنفه وتهالكه فانه مشهود له بشجاعته وفيض منته . الا تراه لايجهل ان لو تكفر في سلاحه أو اعصم بلجام جواده لكان أقرب الى النجاة وابعد عن الملحاة[٦٧] ، لكنه جشم ماجشمه على علمه بما يعقب اقتحام مثله ادلالا بقوة طبعه ودلالة على شهامة نفسه » . ثم قال : « فاعرف بما ذكرناه حال مايرد في معناه ، وان الشاعر اذا اورد منه شيئا فكأنه لانسه بعلم غرضه وسفور مراده لم يرتكب صعبا ولا جشم الا أمما[٦٨] ، وافق بذلك قابلا له أو صادف غير انس به الا أنه هو قد استرسل واثقا وبنى الامر على ان ليس ملتبسا »[٦٩] . وقريب من هذا ما ذهب اليه بعض المعاصرين[٧٠] كالدكتور ابراهيم أنيس الذي قال : « ألست ترى معي أن المعاني قد تزاحمت في ذهن الفرزدق فتزاحمت الالفاظ واختلط بعضها ببعض بينما الشاعر في شغل عنها وقد تملكته العاطفة وسيطرت عليه الفكرة فلم يعبأ بنظام الكلمات على النحو المألوف للناس ؟ لسنا نبالغ اذن حين نقرر أن الشاعر يفر من كل ما هو مألوف معهود محلقا في سماء الخيال لايكاد يشعر بالالفاظ كما يشعر بالمعاني . فاذا سيطرت عليه الصورة سيطرة تامة فقد يسوق لنا مثل هذا النظام الغريب الذي نراه في بيت الفرزدق »[٧١] . والدكتور لطفي عبد البديع الذي قال : « فما يعده عبد القاهر وغيره من

(٦٦) تخمط الفحل : هدر وثار ، وتخمط : تكبر .
(٦٧) تكفر : اعتصم . الملحاة : اللوم .
(٦٨) هو اليسير ، والبين من الأمر .
(٦٩) الخصائص ج ٢ ص ٣٩٢ ـ ٣٩٣ .
(٧٠) ينظر بحوث لغوية ص ٥٦ وما بعدها .
(٧١) من أسرار اللغة ص ٣٢٦ .

البلاغيين بناءا على معاني النحو فسادا في التأليف وخللا في النظم ليس الا صورة من صور التركيب توخاها الشاعر في اللغة . والنحو بأحكامه أعجز عن أن يستوعب أسرار اللغة الشعرية ووجوهها التي يدق فيها النظر فهو يقيم منها أصولا عامة يجريها على أشياء متباينة لاتكاد تتضح معها الخصائص المتفردة للكلام والفاعلية والمفعولية والابتداء والخبرية وغيرها لاتغني وحدها في بيان الآثار الشعرية لمواقع الالفاظ في العبارات »[٧٢] .

والسيد ابراهيم محمد الذي قال ان الضرورة الشعرية « تكشف عن الخصائص الفردية التي بها يظهر روح الشاعر أو الاديب . فمغالبة القوة التي يصنعها اطراد العادة اللغوية لايمكن تفسيره الا بالتسليم بان قوة مناهضة بعثت على النشاط الجديد الذي به خالف التعبير ما استقر عليه الاستعمال إذ اطراد الاستعمال اللغوي من شأنه أن يصبح قوة تتسلط على كل تعبير ناهض اذ تتكون العادة اللغوية التي عليها يطرد التعبير وتستقر في عقل الجماعة اللغوية فلا ينفك عنها أي تعبير جديد . على أنه وان كانت الضرورة الشعرية خروجا على القواعد النحوية ، فهي ليست خروجا على اللغة لان الشعراء بحكم حياتهم في اللغة لاينفكون عنها بحال » . ثم قال : « ولكن التحليل الاسلوبي لبيت الفرزدق وفيه التقديم والتأخير ، ووضع الكلام في غير موضعه يتضمن البحث عن العلل الروحية التي نشط عنها التعبير وتتحصل بها القيمة الفكرية التي يتضمنها البيت ولا تظهر الا به »[٧٣] . فابن جني كان سباقا الى هذه المسألة وقد وصفها وصفا دقيقا ، ولو أخذ عبد القاهر برأيه لتجنب الخوض في فساد النظم ولفسر التركيب اللغوي في بيت الفرزدق وغيره تفسيرا قريبا من حالة الشعراء وانفعالهم في أثناء العملية الشعرية والخلق الفني .

(٧٢) التركيب اللغوي للأدب ص ١٠ .
(٧٣) الضرورة الشعرية ص ٩٧ ــ ٩٨ .

قال عبد القاهر : « فانظر أيتصور أن يكون ذمك للفظه من حيث أنك أنكرت شيئا من حروفه ، أو صادفت وحشيا غريبا ، أو سوقيا ضعيفا ، أم ليس الا لانه لم يرتب الالفاظ في الذكر على موجب ترتيب المعاني في الفكر فكد وكدر ومنع السامع أن يفهم الغرض الا بان يقدم ويؤخر ، ثم أسرف في ابطال النظام وابعاد المرام ، وصاركمن رمى بأجزاء تتألف منها صورة ولكن بعد أن يراجع فيها باب من الهندسة لفرط ما عادى بين أشكالها وشدة ما خالف بين أوضاعها »(٧٤) . وعد هذا البيت من شواهد فساد النظم ، وذلك ان الشاعر تعاطى ماتعاطاه من هذا الشأن على غير الصواب ، فقدم وأخر ، مما اكسب البيت فسادا في النظم أدى الى التعقيد(٧٥) .

وذكر ابن الاثير البيت فقال : « ومعنى هذا البيت : « وما مثله في الناس حي يقاربه الا مملكا أبو أمه أبوه » . وعلى هذا المثال المصوغ في الشعر قد جاء مشوها كما تراه ، وقد استعمل الفرزدق من التعاظل كثيرا كأنه كان يقصده ويتعمده ، لان مثله لا يجيء الا متكلفا مقصودا ، والا فاذا ترك مؤلف الكلام نفسه تجري على سجيتها وطبعها في الاسترسال لم يعرض له شيء من هذا التعقيد »(٧٦) .

لقد اتفق الثلاثة على مافي البيت من تقديم وتأخير اكسبه تعقيدا ، وهو عند ابن جني من الضرورات الشعرية ، وربما ولد انفعال الشاعر مثل هذا التركيب ، ولا يعد دليلا على ضعف الشاعر بل قد يدل على جموحه واسترساله في نظم الشعر ، وهو في حالة الخلق والابداع . وليس في البيت ـ عند عبد القاهر الفاظ ينكرها الذوق السليم ، وليس فيها وحشي غريب يأباه الفهم

(٧٤) أسرار البلاغة ص ٢١ ، وتنظر ص ٦٦ .
(٧٥) ينظر دلائل الاعجاز ص ٨٣ ـ ٨٤ .
(٧٦) المثل السائر ج ٢ ص ٤٦ ، الجامع الكبير ص ٢٣١ .

الثاقب ، وقد جاء التعقيد فيه من أن الشاعر لم يرتب الالفاظ على حسب ترتيب المعاني في الذهن ، ولو فعل ذلك لكان واضحا .

والبيت عند ابن الاثير من أمثلة المعاظلة التي أحد أسبابها التقديم والتأخير وهي من سمات شعر الفرزدق ، وقد كان يقصد ذلك ويتعمده ، ولو ترك الشاعر نفسه على سجيتها لاسترسل وجاء تركيب شعره سلسا لاينوء بالتعقيد .

لقد انتهى العلماء الثلاثة الى نتيجة واحدة وان وصلوا اليها بطرق مختلفة حددتها عوامل عدة : منها اختلاف ثقافتهم ، وتفاوت اذواقهم ، وتباين نزعاتهم الفنية ، فابن جني نحوي لغوي ينظر الى النص نظرة لغوية ، وعبد القاهر نحوي ينظر الى النص نظرة بلاغية ، وابن الاثير أديب ينظر الى النص نظرة فنية ، ويرتاب في أحكام اللغويين والنحاة ، وقد حمل عليهم حملة منكرة ولا سيما على ابن جني ، قال : « هذا أبو الفتح ابن جني قد كان من علم النحو على درجة لم ينته اليها غيره ، ومع هذا فلما انتدب لتفسير شعر المتنبي كشف عن عورة كان في غنى عن كشفها ، لانه اخطأ في مواضع كثيرة خطأ فاحشا »[٧٧] . وقال تعليقا على بيت المتنبي :

تبل خدي كلما ابتسمت

من مطر برقه ثناياها

والبيت « من الابيات الحسان التي تتواصف ، وقد حسن الاستعارة التي فيه انه جاء ذكر المطر مع البرق . وبلغني عن أبي الفتح ابن جني ـ رحمه الله ـ انه شرح ذلك في كتابه الموسوم بالمفسر[٧٨] الذي ألفه

(٧٧) الاستدراك ص ١٤ ، وتنظر ص ١٥ ـ ١٦ ، ص ١٨ .

(٧٨) طبع الدكتور صفاء خلوصي جزءين منه باسم « الفسر » .

في شرح شعر أبي الطيب فقال : « انها كانت تبزق في وجهه » فظن أبا الطيب أراد أنها كانت تبسم فيخرج الريق من فمها ويقع على وجهه ، فشبهه بالمطر . وما كنت أظن أن أحدا من الناس يذهب وهمه وخاطره حيث ذهب وهم هذا الرجل وخاطره . واذا كان هذا قول امام من ائمة العربية تشد اليه الرحال ، فما يقال في غيره ؟ لكن فن الفصاحة والبلاغة غير فن النحو والاعراب »[٧٩] .

وصفوة القول : لقد أثر ابن جني في البلاغة العربية وظهر هذا الاثر في بلاغيين كبيرين هما : عبدالقاهر الجرجاني وضياءالدين بن الاثير ، وكان تأثر عبد القاهر واضحا في اتجاه ابن جني المتمثل في اهتمامه بالقواعد والاصول من غير خوض في الجزئيات والوقوف على النصوص وتحليلها . وقد اتخذ عبد القاهر اصول النحو وقواعده منطلقا له ولكنه تجاوز المعاني الاول وبحث عما وراء العبارة أي عن المعاني الثواني« معنى المعنى » ، وعما توحي من أثر . وكان تحليله للنصوص رائعا ، وكانت أحكامه دقيقة ، ولعل وقوفه على الابيات : « ولما قضينا من منى كل حاجة ... » واهتمامه بالمعاني وجعل الالفاظ خدما لها كان بتأثير ابن جني الذي لم يشر اليه إلا مرة واحدة وهي قوله : « ان كان أبو الفتح ابن جني قال ما قال في قول المتنبي : « وفيها قيت يوم للجراد » حتى تكون فضيلة يكون المتنبي بها أشعر من بيت الحطيئة[٨٠] ، فمحال أن يكون البيت بزيادة تقع في مجرد الاغراق من دون صنعة تكون في تلك الزيادة أشعر من البيت ذي الصنعة

(٧٩) المثل السائر ج ١ ص ٣٨٢ — ٣٨٣ .
(٨٠) قال محقق الكتاب : كأنه يعني ببيت الحطيئة والله أعلم قوله :

قروا جارك العيمان لما تركته
وقلص عن برد الشراب مشافره
سناما ومحضا أنبت اللحم واكتست
عظام أمرىء ماكان يشبع طائره

ولا سيما مثل صنعة الحطيئة التي لايبلغ المتأمل لها غاية في الاستحسان الا رأى أن يزيد »[٨١] • وفي هذا دليل على ان كتب ابن جني كانت أمام عبد القاهر وهو يبحث في البلاغة ، ويرسي نظرية النظم •

وكان تأثر ابن الاثير بابن جني واضحا ، اذ نقل منه التعليق على الابيات : « ولما قضينا من منى كل حاجة ••• » واستوحى منه الحكم على المعاني والترجيح بينها ، وقوة اللفظ لقوة المعنى ، والعدول الى المجاز ، وغلبة الفروع على الاصول ، وشجاعة العربية ، والتقديم ، والتأخير ، والاعتراض • وقد أشار في هذه الموضوعات الى ابن جني ، ولكنه انتقده وأظهره بمظهر من لايفقه فهم النصوص ولا يحسن تفسيرها ، وهذا تجن على ابن جني ، لان ابن الاثير اقتفى أثره ، وأخذ منه الاسس العامة في هذه الموضوعات ، ونقل بعض عباراته وكل ما قاله في تفسير الابيات : « ولما قضينا ••• » • وكان لابد من أن يختلف عنه لانه كان يحكم الذوق اكثر من تحكيم القاعدة اذ « مدار علم البيان على حاكم الذوق السليم الذي هو أنفع من ذوق التعليم »[٨٢] •

هذه وقفة قصيرة عند ابن جني وأثره في البلاغة ، أريد بها أن تكون مقدمة لدراسة ابن جني بلاغيا وناقدا ، ففي كتبه مادة بلاغية ونقدية غزيرة ، وستكون دراسة هذا الجانب حلقة في تأريخ البلاغة والنقد ، وطريقا يفضي الى تلمس اللمحات البلاغية والنقدية في غير كتب البلاغة والنقد ، وهي لمحات أصيلة تنفع في دراسة النصوص وتحليلها في ضوء علم اللغة الحديث والنظريات النقدية المعاصرة •

---

(٨١) دلائل الاعجاز ص ٥٦٤ .
(٨٢) المثل السائر ج ١ ص ٥ .

المصــادر :

١ ــ الاستدراك في الرد على رسالة ابن الدهان المسماة بالمآخذ الكندية من المعاني الطائية ــ ضياء الدين بن الاثير . تحقيق حفني محمد شرف. القاهرة ١٩٥٨ م .

٢ ــ أسرار البلاغة ــ عبدالقاهر الجرجاني . تحقيق هـ ــ ريتر استانبول ١٩٥٤ م .

٣ ــ بحوث لغوية ــ الدكتور احمد مطلوب . عمان ١٩٨٧ م .

٤ ــ التركيب اللغوي للأدب ــ الدكتور لطفي عبدالبديع . القاهرة ١٩٧٠م.

٥ ــ التمام في تفسير اشعار هذيل مما اغفله ابو سعيد السكري ابو الفتح عثمان بن جني . تحقيق الدكتور احمد ناجي القيسي والدكتورة خديجة عبدالرزاق الحديثي والدكتور احمد مطلوب . بغداد ١٣٨١هـ ــ ١٩٦٢م.

٦ ــ الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور ــ ضياءالدين بن الاثير. تحقيق الدكتور مصطفى جواد والدكتور جميل سعيد . بغداد ١٣٧٥هـ ــ ١٩٥٦م .

٧ ــ الحيوان ــ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ . تحقيق عبدالسلام هارون. القاهرة ١٣٥٦هـ ــ ١٩٣٨م .

٨ ــ الخصائص ــ ابو الفتح عثمان بن جني . تحقيق محمد علي النجار . القاهرة ١٣٧١هـ ــ ١٩٥٢م وما بعدها .

٩ ــ دلائل الاعجاز ــ عبدالقاهر الجرجاني . تحقيق محمود محمد شاكر . القاهرة ١٩٨٤م .

١٠ــ ديوان ابن الرومي . تحقيق الدكتور حسين نصار . القاهرة (ج ٣ سنة ١٩٧٦م) .

١١ــ سر الفصاحة ــ ابن سنان الخفاجي . تحقيق عبدالمتعال الصعيدي . القاهرة ١٣٧٢هـ ــ ١٩٥٣م .

١٢ــ الشعر والشعراء ــ ابن قتيبة . تحقيق احمد محمد شاكر . القاهرة ١٣٨٦هـ ــ ١٩٦٦م .

١٣ــ الضرورة الشعرية ــ السيد ابراهيم محمد . الطبعة الثانية ــ بيروت ١٤٠١هـ ــ ١٩٨١م .

١٤ــ الفسر ــ شرح ديوان المتنبي ــ ابو الفتح عثمان بن جني . تحقيق الدكتور صفاء خلوصي . بغداد (ج ١ سنة ١٣٩٠هـ ــ ١٩٧٠م) .

١٥ــ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ــ ضياءالدين بن الاثير . تحقيق محمد محيي‌الدين عبدالحميد . القاهرة ١٣٥٨هـ ــ ١٩٣٩م .

١٦ــ من أسرار اللغة ــ الدكتور ابراهيم أنيس . القاهرة الطبعة الثانية .

١٧ــ مناهج بلاغية ــ الدكتور احمد مطلوب . بيروت ١٣٩٣هـ ــ ١٩٧٣م .